﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين كذِبِ الكفّار في أمانِيهم، وبين التّكذيبِ بالبعثِ والآخرةِ

لَمّا فضَحَتِ الآيةُ السّابقةُ الكافرينَ بإظهارِ ما انْطوتْ عليه قلوبُهم منَ الأغراضِ الفاسدةِ، وأنَّ أمنيّتَهم في العَوْد للإيمان - إنْ أُعيدوا إلى الدُّنيا - كاذبةٌ، جاءَ مَنطوقُ هذه الآيةِ الكريمةِ ليضعَ النِّقاطَ على الحُروف في تَلخيص عَقيدتِهم الباطلةِ، بمَنطوقِ قولِهم الواضحِ بأنَّ حقيقةَ الحالِ عندَهم، والمقصودَ من إيجادِهم، ما هو إلّا الحياةُ الدُّنيا وحدَها، وليس وراءَها حياةٌ أخرَى يُبعَثونَ إليها، فيكونُ في هذه الآية برهانٌ على الحُكم عليهم بالكذبِ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ لأنّ إنكارَ البعثِ بعد الموت منْ أعظمِ الكذبِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: نقيضُ الآخرة، وسمّيت دنيا لدُنوّها منّا، وهو منَ الواو، والنّسبةُ إليها دُنياويٌّ ودُنيويٌّ[1]، و"الدّنيا أيضًا اسمٌ لهذه الحياة؛ لبعدِ الآخرة عنها، والسّماءُ الدّنيا لقُربِها من ساكني الأرض، ويقال: سماءُ الدّنيا على الإضافة[2]، والدّنيا "الحياةُ الحاضرةُ، عكسُها الآخرةُ، وفي الحديث: «لَو كانَتِ الدُّنيا تَعْدِلُ عِندَ اللّهِ جَناحَ بَعوضَةٍ ما سَقَى كافِرًا مِنها شَرْبَةَ ماءٍ»[3]، والدّهرُ زمنُ الحياة الدُّنيا كلِّها؛ أي: مُدَّةُ بقائِها إلى انقضائها، قال الشّاعر:

الدَّهرُ كالدَّهرِ والأيّامُ واحِدَةٌ *** والنّاسُ كالنّاسِ والدُّنيا لِمَن غَلَبا[4]

(1) الحميريّ، شمس العلوم: (الدُّنيا).
(2) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (دنا).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (دنو)، والحديث المذكور رواه التّرمذيّ في سننه (رقم: 2320).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (دهر).

2) ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾: البعثُ: الإرسالُ، كبعثِ اللّه مَن في القبورِ. وبعثتُ البعيرَ: أرسلتُه وحلَلتُ عِقالَه، أو كان باركًا فَهِجتُهُ. قال:

أُنيخُها ما بَدا لي ثُمَّ أَبعَثُها *** كأَنَّها كاسِرٌ في الجَوِّ فَتّخاءُ[1]

وبَعَثَهُ، كمَنَعهُ: أرسلَهُ، كابتَعَثَهُ فانبَعَثَ، وبَعَثَ النّاقةَ: أثارَها، وبعثَ فلانًا من منامِه: أهَبَّهُ، والبَعثُ، ويُحرَّكُ أيضًا بفتح العَين؛ أي: البَعَثُ: الجيشُ، وجَمْعُه: بُعوثٌ، والبَعثُ كذلك: النَّشرُ[2]، وهذه المعاني كلُّها: أرسلَه، أَهَبَّه، أثارَه، النَّشرُ، تَصدُق على قولِه تعالى في الآية: ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أظهرَ لنا بيانُ اللّه ﷻ حقيقةَ ما انْطوتْ عليه قلوبُ الكافرينَ من عقيدةٍ باطلةٍ؛ حيث قالوا: ما هي إلّا هذه الحياةُ الدُّنيا، ثمَّ لا مَعادَ بعدَها، ولا بعثَ بعدَ الموتِ، "هكذا كان دينُهم في الحياة الدّنيا، دينٌ يقطعُ أصحابَه عنِ النّظر فيما وراء هذه الحياة الدّنيا الّتي استغواهم فيها الغيُّ، وركِبهمُ الضّلالُ، فأضافوا وجودَهم كلَّه إلى هذه الأيّام الّتي يعيشونَها من مولدِهم إلى موتِهم"[3].

إيضاحُ عقيدةِ الكفَرةِ في إنكارِ البعثِ، وجُحودِ الآخرةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطْفِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ عطْفٌ على قولِه السّابق: ﴿لَعَادُواْ﴾؛ أي: ولو رُدّوا لَكفَروا ولَقالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، كما كانوا يقولونَ قبْلَ يوم القيامة، ويجوزُ أنْ يُعطَفَ على قولِه في ذَيل الآية السّابقة: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ على معنى: وإنَّهم لقومٌ كاذبونَ في كلِّ شيءٍ، وهُمُ الَّذين قالوا: إنْ هي إلّا حياتُنا الدُّنيا، وكفَى به دليلًا على كَذِبهم[4].

إفادةُ السِّياقِ تأكيدَ إنكارِ الكافرينَ للبَعثِ والنّشورِ

(1) الخليل العين: (بعث).
(2) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (بعث).
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/154.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/13.

بيانُ عَوْدِ الضّميرِ في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾، مِن: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾:

عَــوْدُ الضَّـميرِ على الكافرين عُمومًا، ولأقربِ مذكُورٍ خُصوصًا

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ أنّ الضَّميرَ في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ عادَ للكافرين الَّذين قالَ اللّهُ عنهم: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنعام: 25] وهُمُ الَّذينَ قالَ اللّهُ فيهم: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: 27].

ولِمن قالَ فيهم: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ [الأنعام: 28] فالسّياقُ كلُّه في حديثِه عن أقوالِ الكافرين في الدُّنيا، وما سَيقولونَه كذلكَ في الآخرةِ في تمنّيهمْ أنْ يعوّدوا للدُّنيا ليؤمنوا، ولكنَّهم كاذبونَ فلو رُدّوا لَعادوا لما كانوا عليه من قبلُ منَ الكفرِ والتَّكذيبِ[1].

فهو على وجهِ الخُصوصِ معطوفٌ على ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ داخلٌ في حيِّزِ جوابِ ﴿وَلَوۡ﴾.

دلالةُ استعمالِ (إنْ) على نفْيِ الجنسِ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾:

حـصـرُ الحـيـاةِ في الـدُّنـيـا فقطْ سَـفـاهـةُ رأيٍ وسُوءُ تقديرٍ

﴿إِنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ نافيةٌ للجِنْس، ولم يكْتفوا بالإخبارِ عن المحصورِ، فيقولوا: هي حياتُنا الدُّنيا، حتَّى أَتَوْا بالنَّفْيِ والحَصْر؛ أي: لا حياةَ إلّا هذه الحياةُ الدُّنيا فقط، وهي ضميرُ الحياةِ، وفسَّره الخبرُ بعدَه، والتَّقديرُ: وما الحياةُ إلّا حياتُنا الدُّنيا، أوْ إنِ الحياةُ لنا إلّا حياتُنا الدُّنيا، فلا حياةَ لنا غيرُها فَبَطَلَتْ حياةٌ بعد الموت، وهذا المعنَى المفصَّلُ جاءَ موجَزًا بكلماتٍ قليلةٍ في الآية، وهو القَصْدُ من إبهامِه، وهذا الإيجازُ من بلاغةِ الإعجازِ البيانيِّ للنَّصِّ القرآنيِّ[2].

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/479، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/193.

(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/283، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/479، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/187.

دلالةُ الحصْرِ بالنّفْيِ والاستثناءِ المُفرّغِ في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾:

الاقتصارُ على الدّنيا قُصورٌ في التّقديرِ، وانحصارٌ في التّفكيرِ

"قولُه: ﴿إِنۡ هِيَ﴾: ﴿إِنۡ﴾ نافيةٌ للجنس، والضَّميرُ بعدَها مُبهَمٌ يُفسِّرُه ما بعدَ الاستثناء المُفرَّغ، قُصِدَ من إبهامِه الإيجازُ اعتمادًا على مُفسِّرِه، والضَّميرُ لَمّا كان مُفسَّرًا بنكرَةٍ فهو في حُكم النَّكِرة، وليس ضميرَ قصَّةٍ وشَأنٍ؛ لأنَّه لا يستقيمُ معه معنى الاستثناءِ، والمعنى: إنِ الحياةُ لنا إلّا حياتُنا الدُّنيا؛ أي: انحصَرَ جِنسُ حياتِنا في حياتِنا الدُّنيا، فلا حياةَ لنا غيرُها، فبطَلتْ حياةُ ما بعد الموت، فالاسمُ الواقعُ بعدَ ﴿إِلَّا﴾ في حُكمِ البَدَلِ منَ الضَّمير"[1]، وهذا من قصْرِ الموصوف على الصِّفةِ؛ وذلك على التّأويل في الحياة الدّنيا، على أنّ المقصودَ ما ارتبطَ بها منَ الصّفاتِ في أذهان الكافرين من بهجةٍ، ونُعومةٍ، وترَفٍ، ومَلذّات، وهو ما يَعنيه وصفُ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ مؤنثِ (أدنَى)، وهو الحاضرُ القريبُ العاجلُ.

دلالةُ وصْفِ الحياةِ بـ(الدّنيا)، في الآيةِ الكريمةِ:

توكيدُ ما استقرَّ في نفوسِ الكافرين، جلاءٌ للحقِّ المبينِ

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ الدُّنيا صفةٌ لقولِه: ﴿حَيَاتُنَا﴾، ولم يُؤْتَ بها على أنَّها صفةٌ تزيلُ اشْتراكًا عارضًا في معرفةٍ؛ لأنَّهم لا يُقرّونَ بأنَّ ثَمَّ حياةً غيرَ دُنيا؛ بل ذلكَ وصفٌ على سبيلِ التَّوكيدِ، إذْ لا حياةَ عندَهم إلّا هذه الحياةُ[2]، وفي الصّفة والموصوف ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ ثلاثُ فوائدَ: أوّلها: نفيُ وجودِ أيِّ حياةٍ غيرِ الحياةِ التّي يعيشونها، والثّانية: أنّهم يَنسبون الحياةَ إليهم؛ لأنّها موطنُ المتعةِ وسببُها، والثّالثة: إنكارُهم صراحةً لبَعثِهم، وتأكيدُ ذلك بالنّفي بالباء، وباسميّةِ الجُملةِ[3]

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/187.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/480.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2478.

دلالةُ النّفْيِ مع تأكيدِه في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾:

فلسفةُ الإنكارِ للآخرةِ وَهَمٌ يُسيطرُ على العقولِ القاصرةِ

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ نَفيٌ منَ الكافرينَ للبَعث، يُؤكِّدُ النّفيَ المتضمَّنَ قبلُ في ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، وهو يَستلزِمُ تأكيدَ نفْيِ أيِّ حياةٍ بعد الحياة الدُّنيا؛ لأنَّ البعثَ يَقتضي وجودَ حياةٍ بعدَ، وجاءتِ الباءُ في ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾ لتأكيدِ إنكارِ البَعْثِ مرّةً بعد مرّةٍ؛ ليعكسَ ثقةً متوهَّمةً لطَمأنةِ النّفسِ المكذِّبَةِ بما تعيشُه من وهمٍ، وهو دأبُ أصحابِ الباطلِ في إقناعِ النّاس بباطلِهم؛ إذ يسوقونَه بأساليبَ مؤكَّدةٍ لإيهامِ النّاسِ وطَمأنةِ الأنفُسِ، واليقينُ الّذي تأنسُ إليه العقولُ السّليمةُ؛ أنّ ذلك الوَهمَ بنفيِ الآخرة هو عُقمٌ في التّفكيرِ، وقصورٌ في النّظرِ؛ لأنّ إلغاءَ الآخرة هو محضُ خُسرانٍ، تذهبُ به الحقوقُ، ويُهضمُ به سعيُ المُحسنين، ويَستفيدُ به العصاةُ منِ انفلاتِهم، بحُكمِ استيفاءِ ملذّاتِهم في حياتهم الدّنيا.

دلالةُ العطْفِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾:

الانتكامُ إلى الحوارِ المنطقيِّ مُبطلٌ لإنكارِ البعثِ بعدَ الموتِ

جاء العطفُ في هذه الجُملة، ولم تُفصَلْ فتكونُ مُؤكِّدةً للجُملة الّتي قبلَها؛ لأنَّ قصدَ الكافرين إبطالُ قولِ الرَّسول ﷺ في وجود حياةٍ لهم ثانيةٍ، وقولِه ﷺ إنَّهم مبعوثون بعدَ الموت، وقد ورد ذلك بمنطقِ القرآن الكريم في الإقناع والبيان، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: 78 - 79]. وقولِه تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [هود: 7][1]، وقد ورد نقاشُ هذه العقيدةِ الفاسدةِ عند الكفرةِ المُنكرين، وعند الملاحدةِ الجاحدين، في مواقعَ شتَّى منَ القرآن الكريم، وفي جميعِها يَعرِضُ القرآن دعاواهم الباطلةَ، وأقاويلَهم الزّائفةَ، ومكرَهم الكُبّارَ، ومآلَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/187.

الأكيدَ إلى الخَسارِ والبوارِ، ويَردُّ عليها بمنطقٍ سليمٍ، وحُججٍ دامغةٍ، وأمثلةٍ واضحةٍ داحضةٍ، ممّا لا يستطيعون إنكارَه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(البَعْث) و(النُّشور):

البعثُ إخـراجٌ مـنَ الـقـبـور، وظهورُ المبعوثِين وأعـمـالِـهـم هو النّشورُ

البعثُ: اسمٌ لِبَعثِ الخَلقِ من قُبورِهم؛ أي: إخراجُهم من قُبورِهم إلى الموقفِ للحساب والجَزاء ومَعرفةِ المآل، إمّا إلى جنَّةٍ وإمّا إلى نارٍ، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52]. وقد أوضح القرآنُ لزومَ البعثِ، ومُطلقَ قُدرةِ الله على فعلِه، إذِ البادئُ بالخلق قادرٌ على إعادة بعثِ ما خلقَ، وكانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧﴾ [الصّافّات: 16 - 17]؛ فهذا الّذي تشابهَ عليهم، ولذلك أعلَمهم الله الوجهَ الّذي يَنبغي أن يستدلّوا به على أنّ هذا المُتشابهَ عليهم كالظّاهرِ لو تدبّروه، فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: 78 - 79][1].

وأمّا النُّشورُ فهو اسمٌ لِظُهور المَبعوثينَ، وظُهورِ أعمالِهم للخلائقِ، ومنه قولُك: نَشَرْتُ اسمكَ، ونَشَرْتُ فضيلةَ فُلان، إلَّا أنَّه قيلَ: أَنشَرَ اللّهُ الموتَى بالألف، ونَشَرْتُ الفضيلةَ والثَّوبَ؛ للفرق بين المعنَيَين[2]، ويتَّضحُ منَ الفرق بين الاسْمَين أنَّ ذِكرَ البعث أَولى بالسّياق منَ النُّشور الَّذي يُخبرُنا به بيانُ الله تعالى عن إنكار الكافرينَ لإخراج النّاس من قُبورهم للحساب من أَصلِه، وما وراءَه من ظُهور المبعوثينَ، وظُهورِ أعمالِهم للخلائق تَبَعًا، وليس أَصلًا.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شبه).
(2) العسكريّ، الفُروق اللغوية، ص: 103.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»